Journal of Al-Tamaddun, Vol. 17 (1), 2022, 167-181
https://doi.org/10.22452/JAT.vol17no1.13

الإسلاموفوبيا باعتبارها خطاب كراهية: جذورها الدينية والثقافية
(Islamophobia from a Hate Speech: Its Religious and Cultural Roots)

Badrane Benlahcene*

ملخص

تهدف هذه الورقة إلى تحليل الجذور الدينية والثقافية التي أنتجت خطاب الإسلاموفوبيا، وصورت الإسلام باعتباره دينا همجيا، والمسلمين بأنهم اعداء حضارة، وقادت دعاية ضده، وضد مبادئه العالمية، ومسالمة شعوبه التي تعرضت حضاريا للغزو والكراهية والاستعمار، وبخاصة في العصور الحديثة بعد أن هيمنت أوروبا على العالم. وتطرح الورقة تساؤلا عن ظاهرة الإسلاموفوبيا في السياق الغربي، وعن خطاب الكراهية الناتج عنها، وما الجذور الثقافية لهذه الظاهرة المنتجة لخطاب الكراهية تجاه المسلمين؟ ومن أجل تحقيق هدفها، فإن هذه الورقة تعتمد على تحليل بعض النصوص الثقافية الدينية لرموز دينية غربية منذ فجر الاسلام إلى اليوم، وكذلك تحليل عينة من نصوص فكرية تعبر عن الاستعلاء الغربي على الحضارة الاسلامية، مما يخالف التاريخ والواقع. لمعرفة خلفية الصورة المعادية للإسلام والمسلمين، التي أدت إلى نشأة ظاهرة الإسلاموفوبيا، وتحولها إلى خطاب كراهية، في مختلف وسائل الاتصال والتواصل. ولعل من أهم النتائج التي تصبو إليها هذه الورقة هي أن تفتح باب المراجعة الثقافية؛ الدينية والفكرية الغربية نحو الإسلام، والانفتاح عليه، وتجاوز عقدة الحروب الصليبية، من أجل بناء فهم علمي واقعي للإسلام كما هو، وللمسلمين كما هم وليس كما يتم تخيلهم. وكذلك فتح باب التعاون الحضاري والعيش المشترك بدل الصراع من جهة أخرى، وبخاصة أننا في عالم صار مصير كل شعوب البشرية مترابطا بعضه ببعض.

كلمات مفتاحية: الإسلاموفوبيا، الكراهية، الصراع، التعايش، الاسلام

Abstract

This paper raises a question about Islamophobia as a phenomenon in the Western context, and its resulting hate speech, to understand the roots of this phenomenon that produces hate speech towards Islam and Muslims. It aims to break down these historical roots, and relies on the analysis of religious texts from western religious personalities since the dawn of Islam until today, as well as the analysis of a some of intellectual texts expressing Western supremacy over Islamic civilization, which led to the emergence of Islamophobia and its transformation into hate speech in various means of communication and interaction. Among the results that this paper aspires to is to pave the way for religious and intellectual revision of western standpoint towards Islam, to open the door for new understanding of Islam and Muslims that goes beyond the complexities of the Crusades and the colonial period, to build an informed understanding of Islam and Muslims. Moreover, to open the door for cultural cooperation and coexistence instead of conflict, especially as we are in a world where the destiny of the whole humankind has become interconnected.

Keywords: *Islamophobia, Hate, Conflict, Coexistence, Islam*

تمهيد في طرح الإشكال

في عالم اليوم المتشابك، بفعل التطور التكنولوجي والثورة الرقمية، والتواصل في مختلف مجالات الحياة، بين مختلف الأمم. وفي هذه المرحلة التاريخية التي تتميز بالعالمية، والمصير المشترك، والارتباط المصيري بين مختلف الأمم، بما يجعل من الصعوبة بمكان أن ينفرد أحدنا بمصيره دون أن يأخذ بعين الاعتبار مصائر الآخرين.

في ظل هذا كله، لا تزال بعض الظواهر والممارسات والتصورات التي تعيق وجودنا المشترك، وتسبب له ارتباكات، تقلص من طموح البشرية في العيش المشترك، والتواصل المثمر، والاعتراف المتبادل بأننا مهمون لبعضنا البعض، وأن الحضارة الانسانية تحتاج مساهمة الجميع، دون إقصاء أو عنصرية، أو أحكام مسبقة تقوم على موروثات دينية وتاريخية، لا تصمد أمام الفحص والنقد والاحتكام إلى معطيات التاريخ والحاضر.

* Bedrane Benlahcene (PhD), Associate Professor, Ibn Khaldon Center for Humanities and Social Sciences, Qatar University. Email: bbenlahcene@gmail.com.

ومن بين هذه المعيقات التي تعيق العيش المشترك بين الأمم والشعوب والأديان والحضارات، ظاهرة الإسلاموفوبيا، التي تجتاح العالم شرقاً وغرباً، وتتسبب في أحكام ومواقف غير عادلة وغير عقلانية تجاه الإسلام والمسلمين، وتنشئ نحوهم خطاب كراهية يقوم على أحكام مسبقة عليهم، ومواقف معادية لهم ولدينهم وحضارتهم ورموزهم. كما أنه خطاب لا يساعد على التعايش والتكامل بين الشعوب والأمم والحضارات.

إن هذه الظاهرة التي تصور الإسلام بأنه دين همجي، وأن المسلمين أعداء الحضارة، وتوجه نحوهم خطاباً مليئا بالكراهية، جعلت المسلمين يعانون كثيرا، ويواجهون صعوبات في بناء صلات حضارية وثقافية ودينية مع غيرهم من الأمم والحضارات والشعوب، وبخاصة في الغرب.

ولذلك تسعى هذه الورقة لفهم هذه الظاهرة والبحث في جذورها الدينية والثقافية في السياق الغربي، وتطرح سؤالاً مفاده؛ ما هي الإسلاموفوبيا، وما صلتها بخطاب الكراهية، وما الجذور الثقافية لهذه الظاهرة المنتجة لخطاب الكراهية تجاه المسلمين؟

أهداف الدراسة ومنهجها

تهدف هذه الدراسة إلى مناقشة مفهوم الإسلاموفوبيا كما هو متداول اليوم، وبخاصة في سياقه الغربي. كما تهدف الدراسة إلى تحليل الجذور الدينية والثقافية للإسلاموفوبيا. ومن جهة أخرى فإن هذه الدراسة تسعى من خلال تحليل مفهوم الإسلاموفوبيا وجذورها إلى فتح باب المراجعة الثقافية؛ الدينية والفكرية الغربية نحو الإسلام، والانفتاح عليه، وتجاوز عقدة الحروب الصليبية من جهة، من أجل بناء فهم علمي واقعي للإسلام كما هو، وللمسلمين كما هم وليس كما يتم تخيلهم. وكذلك فتح باب التعاون الحضاري والعيش المشترك بدل الصراع من جهة أخرى، وبخاصة أننا في عالم صار مصير كل شعوب البشرية مترابطا بعضه ببعض.

ومن أجل تحقيق هذه الأهداف، فإن هذه الورقة تعتمد على المنهج التحليلي، بتحليل بعض النصوص الثقافية الدينية لرموز دينية غربية منذ فجر الاسلام إلى اليوم، وكذلك تحليل عينة من نصوص فكرية تعبر عن الاستعلاء الغربي على الحضارة الاسلامية، مما يخالف التاريخ والواقع، لمعرفة خلفية الصورة المعادية للإسلام والمسلمين، التي أدت إلى نشأة ظاهرة الإسلاموفوبيا، وتحولها إلى خطاب كراهية، في مختلف وسائل الاتصال والتواصل.

أولاً- الإسلاموفوبيا: المصطلح، والظاهرة، والنتيجة

مصطلح الإسلاموفوبيا من أكثر المصطلحات الشائعة الاستعمال، دون تحديد دقيق لها، ودون اتفاق على ما تدل عليه. ولهذا ذهب الباحثون اتجاهات شتى في تحديد معناه. ولعلنا بتحليل التعريفات التي أعطيت له، نصل إلى خيط ناظم لها، وما تشترك فيه هذه التعريفات، لنخرج بتوصيف يساعدنا على فهم الظاهرة، ومعرفة جذورها المختلفة التي ساهمت في ظهورها وتطورها، وما تضمنته من دلالات. وبالرغم من أن الخوف من الاسلام وكراهية المسلمين قديم قدم الإسلام نفسه، فإن مصطلح الإسلاموفوبيا أو "رهاب الإسلام" يعتبر أمرا حديثا وجديدا نسبياً، يستخدم للفت الانتباه إلى التحيز والتمييز غير مبرر ضد المسلمين.[1]

فالإسلاموفوبيا كلمة جديدة لمفهوم قديم. على الأقل منذ نشر كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد في أواخر سبعينيات القرن العشرين. كما أن الحقيقة الأخرى أن الغرب ربط الإسلام منذ فترة طويلة بالصور السلبية، والمشاعر والقوالب النمطية الجاهزة، ومع ذلك، لم تظهر الإسلاموفوبيا إلا في الخطاب المعاصر مع نشر تقرير "الإسلاموفوبيا: تحد لنا جميعًا" من قبل المنظمة البريطانية غير الحكومية (The Runnymede Trust) سنة 1997.

ومنذ ذلك الحين، وبخاصة منذ عام 2001، فقد تم استخدامه بانتظام، وذلك للفت الانتباه إلى خطورة الخطاب الموجه ضد الاسلام والمسلمين والإجراءات الضارة الموجهة ضدهم في الديمقراطيات الليبرالية الغربية. كما انتشر المصطلح بين المنظمات الدولية على أعلى المستويات. حيث أصدر الاتحاد الأوروبي عدة تقارير عن هذا الموضوع في منتصف سنة 2000، وفي عام 2004 افتتح الأمين العام للأمم المتحدة مؤتمرا للأمم المتحدة حول "مواجهة الخوف من الإسلام". وصار شائع الاستخدام كذلك في الدوائر العامة والأكاديمية.[2]

وبالرغم من هذا الشيوع فإن هناك من يستعمله دون إعطائه تعريفا محددا، وهناك من يستعمل تحديدات غامضة أو ضيقة أو عامة غير مضبوطة. فعلى سبيل المثال يصفها غوتسكالك وغرينبرغ بأنها "قلق اجتماعي تجاه الإسلام والثقافات الإسلامية". بينما يرى غيسر أنها "رفض المرجعية الدينية ... الدين الإسلامي كعلامة هوية غير قابلة للاختزال بين (نحن) و(هم)."[3]

[1] Andrea Elizabeth Cluck (2012), *Islamophobia in the Post 9/11 United States: Causes, Manifestations, and Solutions*, Athens: University of Georgia, pp. 1-2.
[2] Erik Bleich (2011), "What Is Islamophobia and How Much Is There? Theorizing and Measuring an Emerging Comparative Concept," *American Behavioral Scientist*, Vol. 55, No. 12, pp. 1581-1582
[3] Ibid., p. 46.

وحسبت تقرير عام 1997 الصادر عن لجنة "رونيميد ترست" المذكور سابقا، فإن الإسلاموفوبيا تتضمن "التمييز ضد المسلمين في ممارسات التوظيف، وتوفير الرعاية الصحية، والتعليم، واستبعاد المسلمين من الحكومة والسياسة والتوظيف (بما في ذلك الإدارة ومناصب المسؤولية)، والعنف ضد المسلمين؛ بما في ذلك العنف الجسدي والاعتداء اللفظي وتخريب الممتلكات، والتحيز ضد المسلمين في وسائل الإعلام، وفي المحادثات اليومية."[4]

وفي تقرير اللجنة البريطانية المذكور أعلاه، ذكر التقرير ما يتضمنه مصطلح الإسلاموفوبيا في وعي الناس في بريطانيا، وفي غيرها من الدول الغربية، وهي أن: (1) الإسلام يُنظر إليه على أنه كتلة أحادية متجانسة، ساكنة ولا تستجيب للحقائق الجديدة. (2) الإسلام ينظر إليه على أنه منفصل وآخر: (أ) ليس له أي أهداف أو قيم مشتركة مع الثقافات الأخرى (ب) ولا يتأثر بها (ج) ولا يؤثر عليها. (3) الإسلام ينظر إليه على أنه أدنى من الغرب؛ فهو همجي، غير عقلاني، بدائي، متحيز جنسيا. (4) الإسلام ينظر إليه على أنه عنيف، عدواني، يهدد ويدعم الإرهاب، ويشارك في "صدام الحضارات". (5) الإسلام يُنظر إليه على أنه أيديولوجية سياسية، يستخدم لتحقيق أغراض سياسية أو عسكرية. (6) الانتقادات التي وجهها الإسلام للغرب ردت ولم تقبل. (7) العداء للإسلام يستخدم لتبرير الممارسات التمييزية تجاه المسلمين واستبعاد المسلمين من المجتمع السائد. (8) العداء للمسلمين يعتبر مقبولا وطبيعيا.[5]

وقد شاع وانتشر أكثر فيما بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 في الولايات المتحدة وفي غيرها، وبالدلالات المذكورة آنفا. وهي دلالات لا تجعل من الخطاب المندرج في ذلك السياق خطابا ترحيبيا بالمسلمين، ولا خطابا صديقا لهم أو عادلا في التعامل معهم، ولا يهيئ لتعايش مشترك ومساهمة مشتركة في المواطنة أو الوجود الدولي بشكل عام.

بل إن التأمل فيما تضمنته تعريفات الإسلاموفوبيا من مختلف الجهات، نجد التعاريف تتضمن مصطلحات سلبية عن الاسلام والمسلمين، وتتضمن موقفا يحمل العداء، والإقصاء، والغيرية، والاختلاف غير قابل للاندماج، والاستهجان، والنظر إلى الاسلام دينا وأمة وحضارة، نظرة تحمل سلبيات دينية، وثقافية، واجتماعية، وسياسية، وتاريخية.

ولهذا فإن خطاب الإسلاموفوبيا ليس خطابا إنسانيا، ولا حواريا، ولا متسامحا، ولا قابلا لوجود الاسلام والمسلمين. ويتسبب في تشكيل صورة لا تساهم -إن لم تكن تمنع - في بناء جسور التواصل بين الاسلام والغرب، وجسور الحوار والتعاون والعيش المشترك والاندماج الايجابي للمسلمين في الحضارة الانسانية. بل إنها "ظاهرة تسيء إلى الإنسانية جمعاء، وتتعارض مع مبادئ حقوق الإنسان ومع أحكام القانون الدولي."[6]

إن الحقيقة التي أمامنا أن الإسلاموفوبيا التي نراها اليوم واشتدت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، تجعلنا نتساءل: هل هذا الخطاب طارئ مرتبط بأحداث 11 سبتمبر 2001 فقط، أو قبله منذ التسعينيات من القرن العشرين كما أشار لذلك التقرير البريطاني، أم أن هذا الخطاب ممتد في التاريخ، وله جذور متنوعة؛ دينية وثقافية حضارية؟!

وإذا كان ممتد الجذور، فإن ذلك يقودنا إلى النظر إليه على أنه حصيلة عوامل متعددة دينية وثقافية وحضارية، وصيرورة تاريخية، أفضت إلى ما نشهده اليوم من تحول الظاهرة إلى خطر يهدد التعايش، بما يبثه من كراهية مبنية على مغالطات وأحكام جاهلة تعميمية تفتقد للمعطيات الصحيحة. وهي حصيلة لذلك التراكم التاريخي من تشكيل صورة نمطية للمسلمين، والعرب بخاصة، على أنهم عنيفون، وغير متحضرين، ومعادين بطبيعتهم للمثل الغربية.[7]

وهذا يتطلب منا تحليل هذه الجذور، ومعرفة بداياتها، وكيف تحولت إلى مصدر لهذا الخطاب. أو بعبارة أخرى؛ كيف شكلت هذه الجذور المتنوعة صورة الإسلام في الغرب؛ تلك الصورة التي صارت تتحكم في مواقف الغربيين من الإسلام والمسلمين، وتشكل غشاوة تحجب الحقيقة، وتمنع النقد، والتمحيص للمواقف، حتى صارت تصدر ضد الإسلام والمسلمين وحضارتهم ووجودهم وهي مليئة بالكراهية غير المبررة واقعيا.

وفي هذا السياق، يمكن القول أن هناك جذران شكّلا خطاب الإسلاموفوبيا اليوم؛ أحدهما الخطاب الديني الإقصائي الذي تشكل منذ اليوم الأول لتلاقي الإسلام والمسلمين مع بيزنطة والنصرانية، وتطور مع الحروب الصليبية، وأطرته المؤسسة الدينية الكنسية، التي استمرت في رسم صورة كارثية عن الإسلام، وتنميطه في صورة الهرطقة المسيحية تارة، وبالعدو الهمجي غير العقلاني المدمر تارة أخرى.

أما الجذر الثاني فهو الجذر الثقافي الحضاري؛ الذي بدأ يتبلور أكثر، ويتجسد في خطاب التنوير، وفلسفة الأنوار والحداثة، التي مهدت لظهور الغرب الحديث. ذلك الخطاب الذي حبس نفسه في رؤية توفيقية براغماتية مضطربة، تنظر بعين الإنصاف

---

[4] The Runnymede Trust Commission on British Muslims and Islamophobia (1997), "Islamophobia: A Challenge For Us All," accessed on 8 April 2021, https://www.runnymedetrust.org/companies/17/74/Islamophobia-A-Challenge-for-Us-All.html.

[5] Ibid., p. 4.

[6] المحجوب بنسعيد (2019)، "التخويف من الإسلام (الإسلاموفوبيا)"، *جريدة السفير الموريتانية*، 17/ 4.
انظر: http://www.essevir.info/node/9391 (تم دخول الصفحة يوم 20/ 12/ 2020).

[7] Yaser Ali (2012), "Shariah and Citizenship—How Islamophobia Is Creating a Second-Class Citizenry in America," *California Law Review*, Vol. 100, No. 4, p. 1035.

إلى الاسلام تارة، وتنظر إليه بعين السخرية والاستهجان والنكير تارة أخرى. ثم تحول إلى حقل معرفي تمثل في الاستشراق؛ ذلك "الحقل الامبريالي" كما يصفه إدوارد سعيد[8]، وهو حقل يكشف عن الرؤية الفوقية التي شكلها هذا الخطاب تجاه الإسلام والمسلمين وحضارتهم، كما يكشف عن ذلك التنميط غير العلمي للمسلمين في أنهم متخلفون ذهنيا، وغير متحضرين، وخاملين، وتتحكم فيهم أنواع من القصور الطبيعي التي تمنعهم من الاجتهاد والابداع والتقدم، مما يضفي على الإسلام والمسلمين صورة سوداوية غير إنسانية وغير حضارية.

وتحليل ومناقشة الجذر الديني والجذر الثقافي، هو ما نحاول تناوله في العناصر الموالية من البحث، للوقوف على مدى إسهامهما في رسم صورة الإسلام والمسلمين وحضارتهم في الغرب، مما أدى إلى تشكل ظاهرة الإسلاموفوبيا.

ثانياً- العامل الديني ودوره في التأسيس للصورة المشوهة للإسلام

إن الباحث عن جذور الإسلاموفوبيا أو هذا الخوف من الإسلام، سيجدها عميقة الغور، تمتد في التاريخ، تصاحب ظهور الإسلام دينا ومجتمعا وحضارة، منذ القرن الهجري الأول، وبدايات اللقاء مع غيره من الكيانات الدينية والحضارية، المتمثلة خاصة في الإمبراطورية البيزنطية.

ذلك أن ظهور الإسلام بعد ست قرون من ظهور النصرانية واستقرارها، وتأكيد الإسلام أنه جاء لإتمام الرسالات التي جاء بها الرسل والأنبياء من قبل، جعل النصرانية تستشعر أنها مهددة في مكان ظهورها وانتشارها، وكان أمام النصرانية خيارات ثلاثة:[9]

أولها: كان بإمكانها الترحيب بالإسلام؛ لأنه في النهاية يؤمن بالله نفسه، وكل أنبياء أهل الكتاب. فكان بإمكانها أن تتعلم التعايش مع الإسلام، ولكن هذا لم يحدث تاريخيا.

وثانيها: كان الأخطر من الخيار الأول أنهم لو قبلوا الإسلام بصفته دينا من الإله نفسه، فحينئذ يكون الله عز وجل قد أنزل إلى رسول آخر، وأن الرسالة الخاتمة هي الإسلام الذي جاء لإكمال الرسالات السابقة التي نزلت على أهل الكتاب، وهذا الاحتمال- يعني: انهم سيصبحون مسلمين-، وهذا الاحتمال هدد قوة القساوسة ومؤسسة الكنيسة، وبالتالي لم يجد أي اهتمام.

أما الاحتمال الثالث الذي بدأ جذاباً للنصارى فهو تكذيب هذا الدين، ومحقه من الشرق الأوسط إن كان ذلك ممكنا. وبالرغم من أن الإسلام فرض على المسلمين الإيمان بعيسى عليه السلام، واحترام ومحبة أمه مريم، والتعامل بالحسنى مع أهل الكتاب، وعدم إرغامهم على ترك نصرانيتهم، كما يثبت ذلك النص والتاريخ، فإن النصرانية رأت أن الاعتراف بالإسلام تقويض لسلطتها، وأصرت على عدم الاعتراف به وبنبيه وبرسالته. بل سعى كثير من رجال الدين – كما سنرى- إلى التخويف من الإسلام، وزرع الكراهية نحوه، من خلال تشويه الإسلام ونبيه وكتابه، ومجتمع المسلمين، وثقافتهم، وحضارتهم.

ويبدو أن الاتجاه الثالث كان هو الغالب، ونتج عنه أن التخويف من الإسلام وكراهيته بدأ تشكيله من أول أيام تلاقي الإسلام مع النصرانية، في بلاد الشام وشمال إفريقيا، ثم الاندلس، ثم بلاد الأناضول والبلقان لاحقاً، مرورا بالحروب الصليبية. وخلال أقل من قرن من الزمان انتشر الاسلام في العالم القديم وشمل الهلال الخصيب وبلاد الشام وبلاد النيل وشمال إفريقيا والاندلس، ودخل كثير من الناس في الاسلام، بل صاروا حملته دينيا وعلميا وحضاريا.

ولم يجد هذا الاتجاه الثالث الغالب، الذي يمثله بعض رجال الكنيسة واللاهوتيون النصارى، من وسيلة لصد انتشار رسالة الإسلام، إلا العمل على تشكيل صورة مشوهة عنه وعن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن قادة المعرفة والثقافة والفكر قاموا بدورهم أيضا في تشكيل صورة الإسلام والمسلمين في الوعي الغربي، بفعل "الحماسة العدائية" كما يقول جوزف شاخت[10]، وكما سيأتي الحديث عن ذلك في العنصر الموالي.

ومن هنا بدأ الافتراء على الإسلام وحضارته مبكرا، وشكل اتجاها كنسيا قديما، يرجع إلى القرن السابع للميلاد، وبخاصة لما انتشر الإسلام بين معتنقي النصرانية ذاتها، في مصر والشام وشمال إفريقيا، مما أفزع الكنيسة، وبخاصة أن الوضع الحضاري للإمبراطورية البيزنطية لم يكن يسمح بمواجهة انتشار الإسلام.

فلم يعد في وسع هذا الاتجاه الكنسي سوى الافتراء على الإسلام وأهله، وتشويه صورته بأخبار مختلقة، ورسم صورة كاذبة له بعيدة عن الواقع، لمنع اهتزاز صورتها في وسط أتباعها، وللحفاظ على كيانها... واستمر حتى مع الحروب الصليبية.

---

[8] إدوارد سعيد (2006)، *الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق*، ترجمة: محمد عناني، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ص3، 134.

[9] آصف حسين (2013)، *صراع الغرب مع الاسلام: استعراض للعداء التقليدي للإسلام في الغرب*، ترجمة مازن مطبقاني، الرياض: دار الوعي للفكر المعاصر، ط1، ص 25.

[10] جوزف شاخت وكليفورد بوزورث، (1978)، *تراث الإسلام*، ترجمة: محمد زهير السمهوري وحسين مؤنس وإحسان صدقي العمد، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب، ج1/ ص 30-31.

وحينما تم طرد آخر البقايا الصليبية من بلاد الشام في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد، اتجهت البابوية إلى أسلحة أخرى، غير سلاح الحرب، في حربها التي شنتها ضد الاسلام والمسلمين في الشرق الأدنى. وأهم هذه الأسلحة السلاح الفكري؛ أي تشكيل صورة كريهة بغيضة عن الاسلام ونبيه وتعاليمه وقيمه ومجتمعاته وحضارته وتاريخه.[11]

وبالرغم من أن هذا الاتجاه الكنسي لم يكن الوحيد من بين مواقف الكنيسة كما أشرنا سابقا إلى الاتجاهات الثلاثة، فإن بقية الاتجاهات لم تجد لها طريقا لتشكيل صورة الإسلام في الوعي النصراني الغربي، ولم يعرفها الناس إلا في العصور الحديثة. ومن أمثلة الاتجاهات المسيحية التي لم تفتر على الإسلام، الاتجاه الذي كان يمثله المؤرخ سيبيوس (Sebeos) الذي هو أسقف ومؤرخ أرمني، حيث كتب في القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري، كلاما موضوعيا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يعتمد التشويه الذي كتب به الكتاب النصارى بعده.

وفي التاريخ المنسوب إلى سيبيوس يقول واصفا محمدا صلى الله عليه وسلم: "في تلك الفترة برز رجل واحد منهم، رجل من أبناء إسماعيل اسمه محمد، كان تاجراً. وقال للناس أنه نزلت عليه دعوة الحق بأمر من الله، وعلمهم [محمد] أن يتعرفوا على إله إبراهيم، لا سيما وأنه كان على علم ودراية بتاريخ الموسوية. ولأن الأمر جاء من السماء، فقد اجتمعوا معًا جميعا واتحدوا على الإيمان. تخلوا عن تقديس الأوثان، واتجهوا نحو الله الحي الذي ظهر لأبيهم إبراهيم. شرع لهم محمد بأن لا يأكلوا الجيف، ولا يشربوا الخمر، ولا يكذبوا، ولا يزنوا..."[12]

وهو النص نفسه الذي نقله ألفرد بتلر في كتابه عن فتح العرب لمصر، ونسبه لسيبيوس يصف النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بقوله: " في ذلك الوقت ظهر رجل من ولد إسماعيل اسمه محمد كان تاجراً وقال للناس إن الله أرسله بدعوة الحق، ولما كانت الدعوة من الله اجتمع الناس بأمره ودانوا لشريعته، وهجروا عبادة الأوثان الباطلة، وأنابوا إلى الله الحي القيوم الذي ظهر لأبيهم إبراهيم، وقد أمرهم محمد ألا يأكلوا الموقوذة، ولا يشربوا الخمر ولا يكذبوا ولا يزنوا."[13]

فبتحليل النص أعلاه، المنسوب لسيبيوس، وملاحظة العبارات المذكورة فيه، مثل: من أبناء إسماعيل، واسمه محمد، ودعوة الحق، ويتعرفوا على إله إبراهيم، والاجتماع على الإيمان، والأمر بترك المنكرات...الخ. يجدها كلها تحمل معاني إيجابية عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وليس فيها تجن أو اتهام له بما يخالف ما عرف عنه.

وهو الموقف نفسه الذي وقفه طيماثيوس الأول بطريرك كنيسة المشرق لما سأله الخليفة العباسي المهدي عن النبي صلى الله عليه وسلم، فأجاب بأنه "كان يمشي على خطى الأنبياء،"[14] كما أنه أثنى على النبي صلى الله عليه وسلم بأنه " أبعد شعبه عن عبادة الأوثان إلى معرفة الله الواحد."[15] فالمشي على خطى الأنبياء، ومعرفة الله، والنهي عن عبادة الأوثان من صميم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم.

غير أن الأسقف سيبيوس والأسقف طيماثيوس الأول وغيرهما، لم يشكلوا تياراً يصنع الوعي العام النصراني، بل بقي تياراً هامشيا. بينما أخذ الاتجاه الثالث الصدارة في قيادة الفكر الديني المسيحي وأسهم في صناعة الوعي العام الغربي، وساهم في ظهور ظاهرة الإسلاموفوبيا وخطاب الكراهية الذي تحمله.

ولعل الجذور الأولى لهذه الصورة المشوهة الكارهة للإسلام كانت مع شخصية دينية نصرانية عاشت في وقت مبكر من ظهور وانتشار الإسلام في بلاد الشام، وهو منصور بن سرجون المعروف بالقدّيس يوحنا الدمشقي،[16] الذي يعد الرائد الأول للعدوان الفكري، الذي بدأ في القرن الأول الهجري واستمر إلى اليوم. فما نسمعه ونراه اليوم من استهزاء وسخرية في الغرب بالإسلام، ونبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، إنما هو تقليد غربي يضرب بجذوره في أعماق التاريخ، بدأه يوحنا الدمشقي وسار على خطاه كتاب الروم، والغرب بعده إلى اليوم. ويوحنا الدمشقي أول من زعم أن الإسلام هرطقة من الهرطقات.[17]

ففي كتابه "ينبوع الحكمة" الذي يعتبر عند النصارى بمختلف طوائفهم المورد لكل الكتابات الجدلية ضد الإسلام في المستقبل، يعتبر يوحنا أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان نبيًا كاذبًا تأثر بالهرطقة الآريوسية بعد لقائه بالراهب بحيرا، واستعمل القرآن لتغطية آثامه.[18] وفي هذا الكتاب تمسك يوحنا بفكرة أن القرآن الكريم من وضع محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه ليس منزّلا، وحاول تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، بنشر إشاعات كاذبة بان راهبا نصرانيا هو بحيرا قد ساعده في وضع القرآن. وقد اعتقد يوحنا أن محمداً أصبح عارفا بالعهد القديم، والعهد الجديد على أرجح الأقوال من خلال علاقته

---

[11] سعيد عبد الفتاح عاشور (1987)، *بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته*، القاهرة: دار عالم الكتب، ط1، ص 13-14.

[12] James Hoard-Johnston (1999), Historical Commentary on *The Armenian History Attributed to Sebeos*, R. W. Thomson (trans.), Liverpool: Liverpool University Press, pp. 31 & 95-96.

[13] ألفرد بتلر (1996)، *فتح العرب لمصر*، تعريب محمد فريد أبو حديد بك (القاهرة، مكتبة مدبولي، ط2، 1996م)، 188.

[14] Mahmut Aydin (2002), *Modern Western Christian Theological Understandings of Muslims since the Second Vatican Council*, Washington: The Council for Research in Values and Philosophy, p. 133.

[15] John Philip Jenkins (2009), *The Lost History of Christianity*, New York: Harper Collins, p. 11.

[16] شاخت وبوزورث، *تراث الإسلام*، ج1/ ص 30؛

[17] علي بن محمد عودة الغامدي (1999)، *الرؤية الأوروبية للعرب والاسلام في العصور الوسطى*، القاهرة: اتحاد المؤرخين العرب، ط1، ص 59.

[18] يوحنا الدمشقي (1997)، *الهرطقة المائة*، بيروت: منشورات النور، ص39-49.

براهب عربي، وعندما تظاهر بالطيبة استطاع أن يكسب قومه، فقد أعلن أنه أُنزل إليه كتاب مقدس من السماء، وعندما كتب في كتابه بعض الأشياء التي تستحق السخرية، قدمه لهم على انه شيء ينبغي تقديسه.[19] وأيد يوحنا الأكاذيب التي كتبها الكتاب البيزنطيون الآخرون بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعاني من الصرع.[20]

وهكذا أصبحت كتابات يوحنا الدمشقي وأمثاله مصدرا لأية محاولة للكتابة عن الإسلام مباشرة، وظل النصارى لعدة قرون يظهرون صورة من الجهل كمن وضع في سجن محكم الإغلاق، أو كما يصف جون إسبوزيتو الوضع بقوله: "بدأ ارتباطنا بالإسلام من قاعدة من الجهل وكم هائل من الصور النمطية المقبولة على نطاق واسع حول الشرق الأوسط."[21] فلا يسمح فيه إلا للإشاعات عما يحدث خارجه، ويحاول هذا السجن أن يكوّن صورة لما يسمع بمساعدة أفكاره السابقة. وقد كان الكتاب الغربيون قبل 1100م، في مثل هذه الحالة بالنسبة للإسلام حيث إنهم لم يعرفوا شيئاً عن الاسلام بصفته دينا.[22]

واستمر ذلك التقليد الذي شكله يوحنا الدمشقي، فصارت نظرة النصارى عموما، ونصارى أوروبا بشكل خاص، إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، نظرة مشوشة ومضطربة ومبنية على جهل، وفي أحسن الأحوال نظروا إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن تقدير على أنه واحد من اثنين: إما قس كاثوليكي فشل في الترقي في سلم البابوية فقرر الثورة ضد المسيحية، أو راعي جمال فقير تلقى تعليمه على يد راهب سوري ليشكل دينا جديدا من قشور العقيدتين المسيحية واليهودية. فقد كان بالنسبة لأوروبا العصور الوسطى مثلا "تمزقا شيطانيا في صدر الكنيسة المسيحية ... وانشقاقا مشؤوما قام به شعب بربري."[23]

كما نظر الأوروبيون إلى حياة المسلمين الأخلاقية نظرة مزدوجة، كما يذكر تقرير اللجنة البريطانية عن الإسلاموفوبيا؛ إذ نظروا إلى حجاب المرأة المسلمة كتعبير عن "السرية والقهر" والفصل بين الرجل والمرأة، وفي نفس الوقت نظروا إليه على أنه مصدر "فجور واستباحة أخلاقية مستترة" خلف الحواجز والأسوار.

أما الحروب الصليبية فإنها من أكثر العوامل تشكيلا للمخيال الغربي في تعامله مع الاسلام، ولا يكاد يتخلص من ذلك. بل صار هذا المخيال يوجه رجال العلم والسياسة وقادة الجيوش وعامة الناس. وبقي أثر تلك الروح الصليبية حتى القرن العشرين. ففي 1920 عندما احتل الجيش الفرنسي دمشق، ذهب قائد الجيش إلى قبر صلاح الدين، وصاح صيحته المشهورة: "ها قد عدنا يا صلاح الدين،" وتخيلها لحظة نهاية لمرحلة بدأت سنة 1095، حينما نادى البابا أوربان الثاني للقيام بالحملة الصليبية ضد المسلمين.[24]

وقد انتقلت هذه الصورة المشوهة إلى قادة الإصلاح الفكري والديني في أوروبا وعلى رأسهم زعيم حركة الإصلاح البروتستانتي مارتن لوثر الذي نظر إلى الإسلام على أنه حركة عنيفة تخدم أعداء المسيح لا يمكن جلبها للمسيحية لأنها مغلقة أمام المنطق، ولكن يمكن فقط مقاومتها بالسيف،[25] ورأى لوثر أن محمدا نبي كاذب. فلم يكد لوثر يخرج عن طريقة التهجم المبني عن قلة معرفة بالإسلام، والمبني على جو الصراع والمواجهة.[26]

وإذا كان هذا الاتجاه الكاره للإسلام والذي حاول صده والحرب عليه، كان في زمن يوحنا يخاف من "سراسنة الجزيرة،" فإنه في زمن بيتر المقدس قد انتقل الخوف والتخويف من المورسكيين في إسبانيا، ثم انتقل الخوف والتخويف من ظهور الأتراك في بلاد النصرانية اللاتينية، فقد كان فتح القسطنطينية رمزا لتدمير النصرانية الشرقية، وتحد للغرب، كما فعل الصليبيون في القرن الحادي عشر، وهذا الذي جعل علماء اللاهوت النصارى يشعرون بمرارة أكبر وأكثر إحباطا؛ لأن مشكلة الإسلام فقط هي التي ظلت التحدي الأساسي الفكري لأوروبا.[27]

ونجد صداه حتى في العصور الحديثة مع شخصيات دينية لها أثرها في صناعة الوعي والفكر في الغرب. فمثلا نجد البابا بندكتوس السادس عشر يستمر في نفس الاتجاه المبني على تشوهات فكرية ومخادعات أخلاقية، وذلك في محاضرته المشهورة التي اتهم فيها الإسلام بمعاداة العقل، وأثارت ضجة كبيرة. ففي دفاعه عن مسيحية أوروبا، وأن المسيحية في أوروبا هي التي أعطت لأوروبا هويتها، وأن بقية الأديان طارئة عنها،[28] لم يكف عن استعمال مغالطات وسفسطات تبين أن المسيحية تجمع بين العقل والقلب، بينما الإسلام دين عنف ولا عقلانية. وأن استيعاب المسلمين في المجتمعات الأوروبية،

---

[19] المرجع نفسه، ص39-49.

[20] Bonifatius Kotter (1973), "Book Review: John of Damascus on Islam. The "Heresy of the Ishmaelites" by Daniel J. Sahas," *The Thomist: A Speculative Quarterly Review*, Vol. 37, No. 4, pp. 781-784; Diego Sarrió Cucarella (2018), "Schadler, Peter, John of Damascus and Islam: Christian Heresiology and the Intellectual Background to Earliest Christian-Muslim Relations," in *Collection: The History of Christian-Muslim Relations*, Leiden: Brill, pp. 390-394.

[21] John L. Esposito (2001), "The Future of Islam," *The Fletcher Forum of World Affairs*, Vol. 25, No. 2, p. 19.

[22] حسين، *صراع الغرب مع الإسلام*، ص28.

[23] شاخت وبوزورث، *تراث الإسلام*، ج1/ ص 88.

[24] The Runnymede Trust (1997), *Islamophobia*, p. 4.

[25] جون إسبوزيتو (1999)، *الخطر الإسلامي؛ خرافة أم حقيقة؟*، ترجمة: قاسم عبده قاسم، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط1، ص93-95.

[26] Philip Schaff (1889), *The History of the Christian Church*, New York: Charles Scribner's Sons, p. 4 & 131; David D. Grafton (2017), "Martin Luther's sources on the Turk and Islam in the midst of the fear of Ottoman imperialism," *The Muslim World*, Vol. 107, p. 665-667.

[27] حسين، *صراع الغرب مع الإسلام*، 31-32.

[28] Joseph Ratzinger (2007), *Europe: Today and Tomorrow*, San Francisco: Ignatius Press, p. 36.

وهم لهم نظام أخلاقي مختلف، قد يجلب الإرهاب[29] وبخاصة في محاضرته في جامعة ريجنزبرغ في ألمانيا التي أثارت جدلاً من خلال مهاجمته الإسلام واتهامه بعد العقلانية.[30]

إن هذا الموقف الذي وقفه رأس الكنيسة الكاثوليكية، لا يكاد يختلف كثيرا عن مواقف سابقة أو لاحقة من رجال الكنيسة. ولكن ما يمكن أن نختم به هذا العنصر المتعلق بالجذر الديني، أن الحقيقة التي نصل إليها، هي أن كتابات رجال الكنيسة المتعصبة لم تكن وليدة دراسة نزيهة للإسلام، بل كانت مبنية على افتراضات وتخيلات وأفكار مسبقة،[31] وتحيزات، وغالبا أكاذيب. فلم يدرس علماء النصارى الإسلام على أنه كيان مستقل، بل درسوه وفقاً لما يجب أن يكون، ووفقا لوجهة النظر النصرانية، وهذه الكتابات هي التي وضعت الجذر الأول والقاعدة الأساس للفهم غير العقلاني للإسلام.

ولا يمكن التقليل من هذا الموقف من رجال الدين النصارى، والقول بأن الغرب قد زحزح المرجعية الدينية لحساب المرجعية الإنسانوية الحداثية. بل استمر أثر الموقف الديني، وحركت النصرانية الغربية بخاصة، الغرب لمحاربة الاسلام حربا دينية، وبهذا العمل وضعت حداً لفهم منفتح واع للإسلام، وأصبح الغرب في موقف معاد للإسلام إلى اليوم.[32]

ثانيا- الاستشراق: التأسيس المعرفي والثقافي لكره الإسلام والصراع معه

مع دخول عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي دخلت نظرة الغرب إلى الإسلام مرحلة جديدة بلغت قمتها في عصور الاستعمار الأوروبي الذي اجتاح شرق العالم القديم خلال القرن التاسع عشر. ووظف فيها الاستشراق لتشكيل صورته عن الشرق عموما وعن الاسلام بخاصة، وتشكيل صورة عنه لدى الشرق أيضا.

وكما يرى إدوارد سعيد فإن معرفة الغرب للإسلام في هذه المرحلة كانت بغرض السيطرة عليه وليس فهمه، وأن عملية المعرفة هذه تمت بشكل منظم نسبيا تعاونت فيه مؤسسات الفكر والمعرفة الأوروبية تعاونا وثيقا مع مؤسسات الاستعمار الأوروبية الرسمية بهدف مدها بالمعرفة اللازمة للسيطرة على المجتمعات المستعمرة.[33]

ومن هنا فإن الاستشراق يمثل الجذر الثاني للإسلاموفوبيا، في بعدها الثقافي الحضاري، بعد أن كان الموقف الكنسي يمثل الجذر الديني. وعمل الاستشراق عل دراسة الشرق لفهمه والسيطرة عليه وتنميط صورته في الوعي الغربي، كما شكل أداة للاستعمار الغربي الحديث للعالم، وتركيز عقدة التفوق الغربي على العالم، والصراع معه، وبخاصة مع الاسلام الذي أدرك المستشرقون عدم قابليته للتطويع، فحذروا من أنه هو الخصم المستمر الذي يشكل تحديا للغرب، ومن هنا تشكل ذلك الهوس بالصدام مع الإسلام ومواجهته لأنه – حسبهم- يهدد الوجود الحضاري الغربي.[34]

1. معرفة الإسلام للسيطرة عليه

إن الاستشراق باعتباره حقلا معرفيا كان له دور مهم في تشكيل صور نمطية عن الإسلام في الغرب، ضمن الوظيفة الثقافية الفكرية للاستشراق. إذ نجد أن الاستشراق حمل على عاتقه مهمة تمثيل الإسلام، ليس في ذاته بقدر ما هو تمثيل الإسلام في عيون الغربيين. فالإنسان الغربي يرجع إلى الأعمال الاستشراقية باعتبارها الدليل الأول والوحيد لمعرفة الشرق، وهو يرى أن الأعمال الاستشراقية تقدم حقائق ثابته عن الإسلام والمسلمين. وبحسب إدوارد سعيد، فإن للاستشراق قوة تؤثر في ثلاث جهات: في الشرق، وفي المستشرق، وفي المستهلك الغربي للاستشراق.[35]

فالاستشراق أسس للرؤية الاستشراقية التي شكلت المرجعيات الأساسية لمعظم الصور المسيئة للإسلام والمسلمين والتي غمرت التفكير الشعبي الأوروبي، والتي منها تصوير النبي محمد صلى الله عليه وسلم بصورة الدجال الذي جاء بدعوة كاذبة، وتصوير المسلمين بالهمجيين الرجعيين، والفاسقين المرتشين، أو الإرهابيين الذي يمارسون العنف بدم بارد، ويقمعون المرأة، وغيرها من الصور الشائعة التي لا تستند على أدلة واقعية، ولكنها لاقت رواجاً في الغرب وكأنها تعكس حقيقة المسلمين.[36] وتصنع هذه الرؤية الاستشراقية الوعي الغربي عن الإسلام والمسلمين؛ سواء الرسمي منه أو الأهلي. فأفكار المستشرقين المبثوثة في مختلف قنوات الفكر والمعرفة والإعلام، تذهب إلى صانعي السياسة والقرار في الغرب، كما تذهب إلى الرأي العام عن طريق أجهزة متطورة للإعلام والدعاية ليؤكد صوراً نمطية أو يشوهها.[37]

وخلال هذه المرحلة نظر الغرب إلى الشرق -بما في ذلك العالم الإسلامي– بأسلوب أصبح الآن نموذجا يدرس عن التشويه المتعمد الذي يمكن أن تقوم به حضارة ما لصورة حضارة أخرى. إن هذه النظرة التي أشرنا إليها قامت بدور مزدوج خطير

---

[29] Jurgen Hebermas & Joseph Ratzinger (2006), *The Dialectics of Secularization: on Reason and Religion*, San Francisco: Ignatius Press, p. 63.

[30] James Schal (2007), *The Regensburg Lecture*, Indiana: St. Augustine Press, p. 137.

[31] Katharine Scarf Beckett (2003), *Anglo-Saxon perceptions of the Islamic World*, Cambridge University Press, p. 3.

[32] حسين، *صراع الغرب مع الإسلام*، ص36.

[33] إدوارد سعيد (2006)، *الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق*، ترجمة: محمد عناني، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ط1، ص134 .

[34] غريغوار منصور مرشو (1996)، *مقدمات الاستتباع: الشرق موجود بغيره لا بذاته*، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الاسلامي، ط1، ص89 وما بعدها.

[35] سعيد، الاستشراق، ص 134.

[36] حيدر مجيد حسين العليلي (2015)، "الشخصية المحمدية في الخطاب الاستشراقي البريطاني حتى نهاية القرن الثامن عشر"، *دراسات إستشراقية*، عدد 3، (شتاء)، ص 34-36.

[37] جميل مطر (2006)، "حوار الحضارات.. السياسي، أولاً"، *المستقبل العربي*، المجلد 28، العدد 325 (31 مارس/آذار)، ص. 56-63.

في تشكيل صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب: الأول تشويه هذه الصورة، والثاني تبرير الاستعمار الأوروبي، واستنزاف أوروبا المنظم لثروات الشرق والعالم الإسلامي، تحت عنوان تحريره ومساعدته على الرقي والتحضر.

ويكفي أن نستطلع عينة من آراء الرحالة والباحثين والأنثربولوجيين ودارسي الشرق ممن يضمهم حقل الاستشراق، لنجد أن آراءهم تتظافر على تشكيل الصورة التي تحدثنا عنها آنفا.

ولعل من أوائل من سعى لوضع صورة نمطية مكروهة للمسلمين في العصر الحديث، نجد الرحالة الإنجليزي جون لويس بوخارت الذي توفي بالقاهرة سنة 1817 م، وكان يتنقل بين العرب باسم الشيخ إبراهيم بن عبد الله. ففي كتابه (بدو ووهابيون) يرسم تلك الصورة السلبية للمسلمين، فقد رأى أن العرب يمكن تصنيفهم على أنهم أمة من اللصوص، مهنتهم الأساسية السلب، وهو الموضوع المسيطر على تفكيرهم. وهذا الذي خرج به بوخارت تبعه فيه علماء آخرون من الغرب، وأكدوا مقولته العنصرية. فنجد إدوارد وليم لين (1801-1867م) في كتابه عن أخلاق المصريين، يصور حياتهم كأنها حياة قصص كتاب ألف ليلة وليلة، الذي قام بترجمته. فقد صور الرجال على أنهم عابثون، وأن النساء فاسقات، وصارت آراؤه في الشرقيين كأنها قانون لفهم الشرق. أما تشارلز داوتي (1843-1926) فقد وصف العرب بأنهم من الشعوب المتخلفة، وأن دين العرب: أي الإسلام، دين السيف ينبغي إخضاعه بالسيف، وأن الإسلام هو الوجه المفزع للعرب.[38]

وفي السياق نفسه كتب إرنست رينان في القرن التاسع عشر، أن ما يميز الشرقي هو "ضيق الأفق"، وأنه "مغلق تمامًا أمام العلم، وغير قادر على تعلم أي شيء أو الانفتاح على أي فكرة جديدة." وكانت هذه الأفكار تبرر شرعية احتلال القوى الأوروبية لأغلب البلدان الإسلامية.[39]

ونجد المستشرق الفرنسي كارادیفو الذي كان ضليعا في الفلسفة الإسلامية وعضوا في المعهد الكاثوليكي الفرنسي، يقول: "إننا يجب أن نقسم العالم الإسلامي، ونحطم وحدته المعنوية مستخدمين في هذا الانقسامات العرقية والسياسية.. ولذلك فعلينا أن نؤكد هذه الخلافات من أجل أن نزيد من جهة الشعور القومي، ومن جهة أخرى نضعف الجماعة الدينية لدى الاجناس الإسلامية المتعددة، وبعبارة مختصرة: دعنا نقطع الإسلام."[40]

كما نجد برنارد لويس الذي يعتبر أحد كبار المستشرقين منظري الصهيونية المعاصرة، والذي كان له دور مهم في صهينة الدراسات الاستشراقية، وعبّر في كثير من كتبه عن هذا التصهين في رؤيته للسياسة الخارجية الأمريكية وقضايا الشرق الأوسط .

ويُلاحظ على برنارد لويس وفاؤه لمنهج الاستشراف في بداياته، فقد ظل وفيا للخط التقليدي للاستشراق في إصدار التعميمات غير العلمية عن الإسلام والعرب، وراح يعمم مقولاته المتحيزة وغير العلمية، بل والكاذبة في منطق العلم والبحث العلمي، عن الإسلام والتخلف الحضاري في العالم الإسلامي، والتخلف العربي.

فالناظر في كتابه "أزمة الإسلام" مثلا، يجده يركز في كتاباته عن الإسلام والمسلمين والعرب والعالم العربي على مجموعة من الآليات الخطيرة، مثل آليات التهويل، والبتر والتقطيع، والتهوين؛ فهو يهوّل ما كان هامشياً أو عفوياً أو قليل الحضور في التاريخ الإسلامي والثقافة والحضارة الإسلامية، ويهوّن (يهمل) ما كان غالباً مهيمناً في الحضارة والفكر الإسلامي وفي الثقافة الإسلامية. كما أنه يمارس بتراً وتقطيعاً لكثير من الحقائق، ويقوم بتغييبها ويعمل على تجاهل أو عزل الأحداث والأفكار عن سياقها الطبيعي.[41] ومما يُلاحظ على كتاباته عن التاريخ الإسلامي أنه يبرز كل الفرق المنحرفة والانحرافات الفكرية التي لا يمكن بحال أن تطغى على الخط العام المعتدل في التاريخ الإسلامي.

إشارة على الدراسات الاستشراقية التي ذكرناها سابقا، فإن الاستشراق، من الجانب المعرفي والمنهجي، في تعامله مع الإسلام ونبيه وكتابه والمسلمين وحضارتهم، فإن معظم إنتاجات الاستشراق المتعلقة بالإسلام، والتي شكلت الوعي الجمعي الغربي؛ الرسمي والأهلي، تعتمد ما يلي:

1. التحريف الممنهج والمتعمد للمصادر: فبدلا من دراسة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، فإن معظم الأفكار والمعلومات والقضايا المتعلقة بالإسلام كانت تؤخذ من الفرق الهامشية، والمبتدعة في تاريخنا، ومن تجارب الصليبيين، وانطباعات الرحالة، ومن الترجمات غير الدقيقة، والتحريف المتعمد للمراجع.
2. الخلفية المسبقة، التي تؤطر كتابات المستشرقين عن الإسلام. فإن الدلائل والأدلة التي تميل إلى إظهار زيف الاسلام، وتهافته، وهمجيته، وعدم صلاحه، وتخلف المسلمين، وعدم عقلانيتهم، وعقم إنتاجهم وإسهامهم في الحضارة، كانت مفضلة على كل ما سواها.

[38] حسين، *صراع الغرب مع الإسلام*، ص 53-57.

[39] The Runnymede Trust (1997), *Islamophobia*, p. 5.

[40] Marwan R Buheiry (1982), "Colonial Scholarship and Muslim Revivalism in 1900," *Arab Studies Quarterly*, Vol. 4, No. 1/2, p. 5.

[41] برنارد لويس (2013)، *أزمة الإسلام*، ترجمة: حازم مالك محسن، دمشق: صفحات للنشر، ط1، ص 43-59، 141-161.

3. المبالغة: وهذا كان واضحا في تناولهم للإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا وشعائر، وفي تناول حياة النبي صلى الله عليه وسلم وفي مجتمعات المسلمين وتاريخهم وحضارتهم. ذلك انهم قاموا بتشويهها وتضخيمها بطريقة غرائبية، حتى لا يمكن التعرف عليها على صورتها التي هي عليها حقيقة.[42]

والعجيب أن حقل الدراسات الاستشراقية، وبالرغم من مرور قرون على تأسيسه، وبالرغم من التوسع الكبير والتطور الحاصل في حقل الدراسات الاستشراقية، وبالرغم من الميزانيات الضخمة التي ترصد له ولمشروعاته وخططه، فإنه لم يتخلص من تحيزاته وإخفاقاته وثغراته. ولعل هذا ما أشار له محمد خليفة حسن في واحد من كتبه التي رصدت حقل الاستشراق وقامت بدراسته ونقده، حيث يرى أن الاستشراق يعاني مما سماه "أزمات،"[43] كما أشار لها إدوارد سعيد.[44]

وهذه الأزمات هي التي خرجت به من كونه حقلا معرفيا إلى كونه حقلا مغذيا للإسلاموفوبيا، ومغذيا لخطاب الكراهية ضد الإسلام والمسلمين وكتابهم ورموزهم وحضارتهم وتاريخهم ووجودهم؛ أزمة التقسيم غير المتساوي للعالم، وأزمة سيطرة الأيديولوجيات، وأزمة التعميم والاختزال، وأزمة إغفال التغيرات الحديثة، وأزمة الاعتماد على الاساطير، وأزمة الحديث عن الشرق نيابة عنه.

فالأزمة الأولى أن لاستشراق يقوم بتقسيم العالم إلى عالميين غير متساويين؛ حيث إن القضية الأساسية التي يثيرها الاستشراق بحسب إدوارد سعيد، هي التمييز بين التفوق الغربي، والدونية الشرقية، فمسألة تقسيم الناس إلى فريقين: فريقنا "نحن" الغربيون، وفريقهم "هم" الشرقيون، واعتبارها نقطة الانطلاق للدراسة والغاية من التحليل، لهي بحد ذاتها عائق أمام أي فرصة للتلاقي الإنساني بين الثقافات والتقاليد والمجتمعات المختلفة.[45]

أما الأزمة الثانية فإن حقل الاستشراق خاضع لسيطرة الإيديولوجيات؛ مثلما كان الاستشراق التقليدي خاضعا لسيطرة الاتجاهات الدينية لليهودية والنصرانية، فإن الاستشراق المعاصر اتسعت قاعدته الإيدلوجية، وتنوعت ما بين الإلحاد والعلمانية والعقلانية والرأسمالية والشيوعية. ومع تراجع سطوة اليهودية والنصرانية توزع الاستشراق الأوروبي والأمريكي المعاصر بين الرؤى العلمانية والإلحادية والعقلانية المستقلة عن الدين، بل والرافضة له، فضلاً عن التفسير الرأسمالي والمادي لحياة الشعوب العربية والإسلامية.[46]

إن الاستشراق في دراسته للإسلام يخلط الايديولوجيا بالعلم، وهو ليس علماً بأي مقياس علمي، وإنما هو عبارة عن أيديلوجية خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات.[47] وهذا الخلط بين الإيدلوجيا والعلم هو المسؤول عن الصبغة غير العلمية التي تتصف بها معظم الكتابات الاستشراقية حول الإسلام، والتي تقدم الإسلام بصورة على غير ما هو عليه، وإنما بما يراد أن يظهر عليه في الوعي الغربي.[48]

أما الأزمة الثالثة، فهي التعميم والاختزال؛ ذلك أن الاستشراق يدرس الشرق باعتباره كتلة واحدة، غافلاً عن الفروق الثقافية والاجتماعية بين المجتمعات والشعوب الشرقية المتعددة، مما يجعله يقع في فخ التعميم. أضف إلى ذلك أن مناقشات الشرق كانت تتسم بالغياب الكامل للشرق، لكن المرء يحس بأن المستشرق وما يقوله حاضران، ومع ذلك فيجب ألا ننسى أن الذي يمكن المستشرق من الحضور هو الغياب الفعلي للشرق. وهذه الحقيقة- حقيقة الإبدال والإزاحة- تمارس ضغطا معينا على المستشرق نفسه بوضوح، وتضطره إلى اختزال الشرق في عمله، حتى بعد أن خصص وقتاً طويلاً لشرحه وعرضه. وهذا ما جعل إدوارد سعيد يعتبر أن الأعمال الكبرى المنسوبة إلى يوليوس فيلهاوزن، وإلى ثيودور نولدكه، مثلاً، أعمال يسودها التعميم والسطحية، هذا عدا أنها تحتقر احتقارا شبه كامل مادة الموضوع الذي اختارته.[49]

أما الأزمة الرابعة فهي إغفال المتغيرات الحديثة التي طرأت على العالم الإسلامي؛ فالمستشرق يصف الإسلام على نحو ما شهده في القرن السابع الميلادي ثم يفترض أن الصورة نفسها قائمة في هذا العصر، غير عابئ بمؤثرات أخرى أحدث وأهم مثل تأثير الاستعمار والإمبريالية.[50]

أما الأزمة الخامسة فهي إدراج الأساطير في الأعمال الاستشراقية؛ والسمة الأساس للخطاب الأسطوري أنه يخفي مصادره وأصوله، مثلما يخفي مصادر ما يصفه وأصوله. وهذا يتعارض ويخالف المنهجية العلمية المطلوبة في الأعمال العلمية. فيقوم الاستشراق بقلب الحقائق الدينية للإسلام وإحلال معلومات مزيفة ومحرفة عن الإسلام وحضارته ومجتمعه، مما يمكن أن

---

[42] حسين، *صراع الغرب مع الإسلام*، ص 37.
[43] محمد خليفة حسن (2000)، *أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر*، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص 146.
[44] سعيد، *الاستشراق*، ص 104.
[45] سعيد، *الاستشراق*، ص104.
[46] حسن، *أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر*، ص 146-148.
[47] محمود حمدي زقزوق (1997)، *الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري*، القاهرة: دار المعارف، ص 21 -22.
[48] حسن، *أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر*، ص 161.
[49] سعيد، *الاستشراق*، ص 327-328.
[50] المرجع نفسه، ص 459.

يرقى إلى الخيانة العلمية؛ لأنها تجافي الحقيقة التي يسعى العلم إلى وصفها وتقديمها في الصورة التي توجد عليها. ويصدق هذا عندما يقدم المستشرق العرب والمسلمين في صور الأنماط الثابتة في الوعي الغربي، دون أن يدعم هذه الصور والاتهامات بأدلة وبراهين.[51]

أما الأزمة السادسة فهي الحديث عن الشرقي نيابة عنه؛ مما يجعل الأعمال الاستشراقية تفتقر للحياد والموضوعية التي يتطلبها أي عمل علمي منهجي. فلا يمكن أن نستقي معلومات صحيحة عن أي شعب أو ديانة أو ثقافة إلا من أصحابها.[52] لكن المستشرق في الغالب ينطلق من مكانته الفوقية وينظر باستعلاء ويتحدث عن الشرقي أو العربي أو المسلم بنظرته الدونية له، ويقدم معلوماته وكأنها حقائق ثابته. وهذا الذي ساهم في صياغة التصورات الأوروبية عن الإسلام، وفي تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة.[53]

فالاستشراق بهذا السياق التاريخي الذي نشأ فيه، وبهذه المنظورات التي وضع نفسه فيها وأنتج من حلالها، فإننا ببساطة يمكن أن نعده جذرا رئيسا في نشأة الإسلاموفوبيا. فالصور النمطية المسيئة للإسلام والمسلمين، وكل الأطروحات التي طرحت ضد الإسلام مثل ارتباط الإسلام بالعنف والإرهاب، ومقاومة الإسلام للحداثة، وأطروحات الخطر الإسلامي الذي يهدد الغرب وغيرها من أشكال ومظاهر الإسلاموفوبيا المتفشية في الغرب عموماً، يعد الاستشراق التقليدي المشكل الأساسي لمرجعيات هذه الجدالات والأطروحات.

2. الامبريالية والصراع وعقدة التفوق

ولعل مما يلحق بالاستشراق ويوسع من خطاب الإسلاموفوبيا باعتباره خطاب الكراهية، ذلك الهلع غير المبرر من الإسلام، والذي أصاب كثيرا من المثقفين والمفكرين والفنانين الغربيين، الذي جعلوه ذريعة للتهجم القاسي على الإسلام والمسلمين وبث الرعب منه والتخويف منه. فنجد الروائي الفرنسي المعروف ميشال ويلبيك حذّر في روايته الأخيرة "استسلام،"[54] وأيضا في كتبه السابقة من "غزو" إسلامي لأوروبا. وهذا "الغزو" سوف يضع بحسب رأيه، نهاية للحضارة الغربي. أما المفكر الفرنسي الآخر آلان فينكيلكراوت فإنه يحذر من "غزو المسلمين لأوروبا" ويحمل المسؤولين السياسيين مسؤولية ذلك، ويرى أنه كان من الضروري أن يفرضوا برامج في المدارس وفي الجامعات تحتم على المهاجرين التعرف على القيم الإنسانية التي تجعلهم قادرين على قبول فكرة الاندماج، والعيش مع الآخر واحترام ثقافته، وتقاليده، وديانته.[55]

إن الغرب أخضع شعوبا ومناطق كثيرة لهيمنته سواء في الموجة الاستعمارية منذ اكتشافه للعالم الجديد في نهايات القرن الخامس عشر، أو خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. وفرضت الحضارة الغربية نفسها على العالم كله، وقد تبنت معظم الشعوب نموذج أوروبا إما كليًا أو معدَّلاً، فسادت مفاهيم الغرب ونظرياته المختلفة، في العلم والمعرفة والمناهج العلمية والتفسيرات العلمية، وفي السياسة والاقتصاد وغيرها، وهيمنت على سائر الرؤى الأخرى بحيث صارت وكأنها قانون العصر الذي لا محيد عنه.[56]

ولكي يستأثر بزمام المبادرة في معالجة التاريخ العالمي يرفض الاعتراف بالقيم والرموز الخاصة بالثقافات المغايرة، أو بفكرة تاريخ متعدد، ويلجأ إلى تقطيع مجتمعات الأطراف إلى شرائح وكيانات قبلية وطائفية، أو عرقية وإقليمية، ويحوّل تواريخ الشعوب إلى أصفار على هامش الحضارة، لا قيمة لها إلا بقدر اندماجها في دائرة السوق المتمم لحاجات إنتاجية المركز الأوروبي. كما أن ذهنية الصراع والسيطرة على الطبيعة والإنسان التي تحكم الغرب في تعامله مع الشرق، ضمن تراتبية تنطوي على إقامة فوارق جوهرية ثابتة بينه وبين سكان الشرق، جعلته يرى نفسه وصياً وحيداً في تقرير مصائرهم تحت شعار تحرير الوثنيين والكفار "الوحوش" أو "الهمج" من "الظلامية" و"العبودية."[57]

وبمقتضى هذه الاستراتيجية راح الغرب يُساوي نفسه مع التاريخ، وله وحده الاستحواذ على مواقع النجاح، ولو على حساب ثقافات وتواريخ الشعوب الأخرى ومحوها. لكن الغرب كان يواجه مقاومة كبيرة من الإسلام والمسلمين. ولهذا كان الخواف الذي يواجه الاستعمار واستراتيجيات الهيمنة على العالم الإسلامي هو الإسلام، ومن ثمة كان جدل واسع خلال الحقبة الاستعمارية وإلى اليوم حول كيفية احتواء الإسلام، فبدون احتوائهم للإسلام، فإن هناك دوما تهديد آت للغرب من جهة المسلمين. ولا بد من محاصرة الإسلام وتقسيم المسلمين.[58]

---

[51] حسن، *أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر*، ص 368؛ سعيد، *الاستشراق*، ص 487.

[52] إسماعيل راجي الفاروقي ولويس لمياء الفاروقي (1989)، *أطلس الحضارة الإسلامية*، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، مراجعة: رياض نور الله، الرياض: مكتبة العبيكان، ص 25-27.

[53] زقزوق، *الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري*، ص 11.

[54] ميشال ويلبيك، (2017)، *استسلام*، ترجمة: شكير نصر الدين، بغداد: منشورات الجمل، ص29-30، 50، 74، 79-83؛

Angelique Chrisafis (2015), "Interview Michel Houellebecq: 'Am I Islamophobic? Probably, yes'," *The Guardian*, Sunday, 6 September 2015, accessed on 6 July 2021, https://www.theguardian.com/books/2015/sep/06/michel-houellebecq-submission-am-i-islamophobic-probably-yes.

[55] [55] حسونة المصباحي، (2017) "منتدى أصيلة يستكشف أسباب ظهور الإسلاموفوبيا في أوروبا"، العرب، ص15. أنظر:-https://i.alarab.co.uk/pdf/2017/07/25-07/p1000.pdf

[56] عبد الوهاب المسيري (1996)، "فقه التحيز"، في عبد الوهاب المسيري، *إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد*، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، ج1/ ص 3-5.

[57] مرشو، *مقدمات الاستتباع*، ص19-21.

[58] حسين، *صراع الغرب مع الإسلام*، ص65.

إن التراث الفكري الديني في التخويف من الإسلام، يضاف إليه ما قام به الاستشراق من تنميط لصورة الإسلام والمسلمين، إضافة إلى التحدي الفكري والقيمي والحضاري الذي يتميز به الإسلام، وعدم قدرة أي طرف على تطويعه أو اختطافه، جعل الغرب يخشى على تفوقه الحضاري، وهو المهووس بصناعة عدو خارجي يبرر به همجيته على بقية الشعوب والحضارات. إن الجذرين السابقين: الجذر الديني والاستشراقي لا يمكن فصلهما عن عقدة التفوق الغربية وعقدة الصراع الحضاري، فكلاهما يوفران زادا دينيا ومعرفيا، ويغذيان الصراع الحضاري بين الإسلام والغرب، وكلاهما يمثلان الخلفية الفكرية لهذا الصراع، حيث ساهما بصورة مباشرة في صياغة التصورات الأوروبية عن الإسلام، وفي تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة.[59]

وكل الأطروحات التي طرحت ضد الإسلام؛ مثل ارتباط الإسلام بالعنف والإرهاب، ومقاومة الإسلام للحداثة، وأطروحات الخطر الإسلامي الذي يهدد الغرب، وغيرها من أشكال ومظاهر الإسلاموفوبيا المتفشية في الغرب عموماً، يغذيها كلها الجذر الديني والجذر الاستشراقي، وهما المرجع الأساس لهذه الجدالات والأطروحات. فالأحكام والمقولات الاستشراقية التي تهاوت علميا، غدت توظف على نطاق واسع في حقل الدراسات الاستراتيجية والسياسية، خصوصاً بعد أحداث 11 سبتمبر 2001م.[60]

وما ذكرته كارن أرمسترونج يعبر بوضوح عن عقدة الصراع هذه، التي صارت تسكن الغرب. ففي كتابها (سيرة النبي محمد) وضعت يدها على الذهنية الغربية في تعاملها مع الحضارة الإسلامية. وفي سياق حديثها عن عصرنا الحالي وانفتاح الحضارات على بعضها وقبول الغربيين لمختلف الاديان البوذية والهندوسية واليهودية وغيرها، أشارت إلى أن الإسلام مستثنى من ذلك في الوعي الغربي، وليس معه تسامح، فكتبت تقول: "إن أحد الأديان الكبرى لا يزال خارج دائرة النيات الطيبة المذكورة، وأنه ما زال يحتفظ بصورته السلبية في الغرب على الأقل. فالذين شرعوا في استلهام أديان مثل دين (الزن) أو (الطاوية) يندر أن ينظروا نفس النظرة المتعاطفة إلى الإسلام، مع أنه الدين الثالث لإبراهيم الخليل، وأقرب في روحه إلى تراثنا اليهودي المسيحي."[61]

لماذا يا ترى يتم استبعاد الإسلام من التعاطف، رغم قربه في أصوله من اليهودية والمسيحية، ورغم معرفة الغرب به؟ ولعل أرمسترونج نفسها تجيبنا بقولها: " فلدينا في الغرب تاريخ طويل من العداء للإسلام، ويبدو أنه راسخ الجذور.. ولكن الكراهية القديمة للإسلام تواصل ازدهارها على جانبي المحيط الأطلسي، ولم يعد يمنع الناس أي وازع عن مهاجمة ذلك الدين حتى ولو كانوا لا يعرفون عنه إلا القليل."[62]

وتشير أرمسترونج[63] إلى أسباب هذا العداء المستحكم بأنه راجع إلى:

1. أنه لم يحدث -قبل ظهور الاتحاد السوفيتي في القرن الحالي- أن واجه الغرب تحدياً مستمراً من دولة أو من منهج فكري يوازي التحدي الذي واجهه من الإسلام.
2. استصحاب الغرب للنجاح الباهر الذي حققه الإسلام في الانتشار بين شعوب الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، على حساب الامتداد الروماني.
3. الحيوية المستمرة للثقافة الإسلامية، رغم ضعف المسلمين، حيث أن هذه الثقافة المتسمة بالقوة والحيوية لا تقبل الهيمنة عليها.

وبالرغم من أن آراء المحللين والمفكرين السياسيين والإعلاميين في الغرب في نظرتهم إلى الإسلام تتراوح بين اعتباره دينا وثقافة وحضارة تهدد الحضارة الغربية وتتصادم معها، وبين الدعوة إلى الحوار والتعايش والتفاهم والاحترام المتبادل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية[64]. فإننا لو نظرنا في أطروحات الصدام والصراع منذ نهاية الحرب الباردة، وانهيار المعسكر الشرقي، سنجد أن التنظير للصدام مع الإسلام كان قويا، ومبكرا، باعتبار أن الإسلام – برغم ضعف وضع المسلمين اليوم- هو المؤهل دينيا وقيميا وحضاريا ليشكل مقاوما للتمدد والهيمنة الغربية على العالم، والبديل لمسار تاريخ البشرية في نشدانها للعالمية.

ولعل أطروحة هنتغتون من أوضح النماذج التنظيرية للصدام والصراع بين الحضارات والثقافات والأديان. فهو يرى أن الصراع في العالم ليس صراع مصالح صرفة، بل هو صراع ثقافات وأديان، والثقافات والأديان تشكل مصدراً للصراعات الرئيسة بين البشر، وأن الثقافة والهويات الثقافية هي على المستوى العام هويات حضارية، وهي التي تشكل أنماط التماسك والتحلل والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة.[65]

---

[59] زقزوق، *الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري*، ص 11.
[60] السيد ولد أباه (2004)، *عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001: الإشكالات الفكرية والاستراتيجية*، بيروت: الدار العربية للعلوم، ص140.
[61] كارين أرمسترونج (1998)، *سيرة النبي محمد*، ترجمة: فاطمة نصر ومحمد عناني، القاهرة: دار سطور، ط2، ص 17.
[62] المرجع نفسه، ص 17.
[63] المرجع نفسه، ص 17-18.
[64] بنسعيد، *التخويف من الإسلام*، مرجع سابق. انظر: http://www.essevir.info/node/9391 (تم دخول الصفحة يوم 20/ 12/ 2020).
[65] صامويل هنتجتون (1999)، *صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي*، ترجمة: طلعت الشايب، القاهرة: دار سطور، ط2، ص 37.

ولم تكن نظرية الصدام بين الإسلام والغرب، لهنتغتون هي وحدها السبب الرئيس لانتشار ظاهرة الخوف من الإسلام في المجتمعات الغربية، فقد سبقه كثير من المفكرين والمستشرقين ذوي النظرة العدائية للإسلام، الذين روجوا أفكارا ونظريات موغلة في التشاؤم والتحذير من الإسلام والمسلمين، ومن أبرز هؤلاء الأمريكي برنارد لويس، الذي ذكرناه سابقا، وجمع بين حقل الاستشراق وبين التنظير لتفكيك العالم الاسلامي وتأييد المشروع الصهيوني، كما أنه معروف بمواقفه المناوئة للإسلام، حيث ألقى نهاية عام 1990 محاضرة في موضوع "الأصولية الإسلامية" تنبأ فيها بحتمية الصراع بين الإسلام والغرب، مثيرا زوبعة من التخويف والتحذير من الإسلام. وعزا أسباب ذلك الصراع إلى جوهر دعوة الإسلام التي ترفض الآخر وتبغي الاختلاف وتكرس الرؤية الاستبدادية وتبعث على الخوف والحذر.[66]

كما أن هنتغتون نفسه ركز كثيرا في نظريته على الحضارة الإسلامية، حيث توقع جازما اندلاع النزاعات والصدامات في المستقبل القريب بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، انسجاما مع خاصية التنازع المستمر بينهما، في اعتقاده، منذ أربعة عشر قرنا عبر مسيرة تاريخية مثقلة بالعدائية والعنف، مما جعله يصنف الحضارة الإسلامية كحضارة صراعية تعتمد الصدام والصراع.

وبناء على ذلك اعتبرت نظرية صراع الحضارات أن الحضارة الإسلامية هي البديل الوحيد للشيوعية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي والعدو المقبل للغرب. وقد استند صموئيل هنتغتون في توقعاته على إحصائيات كثيرة نشرت في أوروبا وأمريكا، أشارت إلى سرعة انتشار الإسلام وتنامي أعداد المسلمين وظهور قوتهم بشكل بارز داخل الأوساط والمجتمعات الغربية ذاتها. ومن تلك الإحصائيات ما نشرها الفاتيكان عام 1985، حيث ذكر لأول مرة في التاريخ أن عدد المسلمين فاق عدد الكاثوليك، ومنذ ذلك الحين بدأت بوادر حملة مسعورة ضد الإسلام والمسلمين وتنامى الحديث عن التطرف الديني وازداد الخوف مما أطلق عليه "الخطر الإسلامي الأخضر."[67]

ومما يدعو للنظر أن هنتجتون كان يرى أن المشكلة ليست في "الإسلام السياسي" ولا في "الأصولية الاسلامية" كما تسمى في دوائر الصراع والاستشراق، بل في الإسلام ذاته.[68] فالإسلام يشكل خطرا وجوديا على الغرب، لأن الحركات الديمقراطية الليبرالية فشلت فشلا ذريعاً في المجتمعات الإسلامية بسبب طبيعة الثقافة الاسلامية وطبيعة المجتمع الإسلامي الرافض للمفاهيم الليبرالية الغربي، وهذا ما يجعل هذه الثقافة في صدام مع الغرب.[69]

كما يحذر من "الصحوة الإسلامية" التي زادت من الصراع بين الاسلام والغرب، لأن هذه الصحوة أعطت ثقة للمسلمين في أنفسهم وإمكانية نهوضهم واستعادة قيم حضارتهم المختلفة عن قيم الغرب.[70]

وقد كانت أطروحة هنتغتون مرتكزا أساسيا للإنجيليين الجدد في البيت البيض، مع بوش الابن، وديك تشيني ورمسفيلد وغيرهم من صناع السياسة الأمريكية، الذين وجدوا ضالتهم في أطروحة هنتغتون في صدام الحضارات.[71] وهذا ما تجسد في غزو العراق واعتبار أن ذلك عمل لحماية العالم الحر من خطر "محور الشر."[72] وهو تفكير في الحقيقة أقل ما يقال عنه أنه مبني على موقف أيديولوجي معاد للإسلام، ومرتكز على مزيج من مقولات دينية موروثة ومقولات استشراقية تؤسس للاستعلاء، وخطاب الهيمنة وعقدة التفوق على الإسلام والمسلمين، مما ولد ممارسات تجتمع كلها في وصف الإسلاموفوبيا، وخطابها في الكراهية.

خاتمة: من الأحكام المسبقة إلى المعرفة والتعارف والتعايش

لقد تبين من خلال فقرات البحث وعناصره، ومن خلال تحليل مفهوم الإسلاموفوبيا، وجذورها؛ وبخاصة الجذر الديني والجذر الثقافي؛ الاستشراقي، أن الإسلاموفوبيا لها جذور عميقة في التاريخ، وأنها تشكلت منذ اللقاء الأول بين الإسلام والمسيحية، ثم تراكمت عبر التاريخ الحضاري للغرب المسيحي في القرون الوسطى بفعل الموقف الديني لأكثر آباء الكنيسة، والغرب الحديث الذي أسس الاستشراق لمعرفة الشرق والهيمنة عليه وتشكيل صورة الشرق لدى الغربيين.

وتلك الجذور شكلت صورة الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية في الوعي الغربي الرسمي والعام؛ صورة مشوهة، كريهة، مخيفة، مبنية على مواقف تنعدم فيها الموضوعية، وعلى جهل بالإسلام وبالمسلمين، كما أنها صورة تشكلت بفعل عوامل الصراع الديني والتاريخي والحضاري، لا تنطبق على الصورة العامة للإسلام والمسلمين كما هم في الواقع وفي التاريخ. مما أثمر خطاب كراهية موجه ضد الإسلام والمسلمين في المجتمعات الغربية، وفي الاعلام الغربي عامة، وفي دوائر القرار والمؤسسات التي تصنع الوعي الجمعي الغربي.

---

[66] بنسعيد، *التخويف من الإسلام*، مرجع سابق

[67] المرجع نفسه

[68] هنتجتون، *صدام الحضارات*، ص 352.

[69] هنتغتون، *صدام الحضارات*، ص188-189.

[70] هنتغتون، *صدام الحضارات*، ص342.

[71] محمد سعدي (2006)، *مستقبل العلاقات الدولية: من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام*، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، ص 79.

[72] Andrew Glass (2002), "President Bush cites 'axis of evil'," *Politico*, 29 January 2019, accessed on 6 July 2021, https://www.politico.com/story/2019/01/29/bush-axis-of-evil-2002-1127725.

وفي عالمنا اليوم الذي تشابكت فيه مصالح الأمم والشعوب، وتوحد فيه مصير الإنسانية، وتوسع فيه التواصل والتعارف بين الشعوب والأمم والأديان والثقافات، بفعل انتشار وسائل التواصل الاجتماعي، وانتشار المعرفة، فإنه لم يعد مقبولا أن تبقى تلك الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين في الوعي الغربي، ولم يعد مقبولا ذلك الخوف المرضي من الإسلام، المبني على جهل، أو أيديولوجيا، أو مغالطات، او استصحاب صور الصراع التاريخية.

ولا حل لزوال خطاب الكراهية المقيت النابع من الإسلاموفوبيا أو الخوف من الإسلام إلا بتجاوز الأحكام التاريخية التي لم تعد واقعية ولم تكن يوما كذلك، وبناء فهم للإسلام قائم على معرفته كما هو لا كما يتخيل، والنظر إلى واقعنا المعاصر الذي صار العالم فيه قرية واحدة نتشارك فيها مصيرا واحدا.

وذلك يكون بفتح باب المراجعة الثقافية؛ الدينية والفكرية الغربية نحو الإسلام، والانفتاح عليه، وتجاوز عقدة الحروب الصليبية، من أجل بناء فهم علمي واقعي للإسلام كما هو، وللمسلمين كما هم، وليس كما يتم تخيلهم. مما يقتضي بناء ذهنية جديدة، يقوم فيها الغرب بالتخلص من ذهنية "المستعمِر" المستعلي المنفرد بمصير البشرية، وكذلك فتح باب التعاون الحضاري والعيش المشترك بدل الصراع، والسعي لتأسيس علاقات جديدة قائمة على التعارف والحوار والتعايش وليس الصراع التصادم والاقصاء، وبخاصة أننا في عالم صار مصير كل شعوب البشرية مترابطا بعضه ببعض.

References

Abbah, Al-Sayed Wald (2004), *'alam Ma Ba'd 9/11/2001: Al-Ishkaliyat al-fikriyah Wa Al-Istratigiyah*, Bierut: Al-Dar Al-Arabiyah Li Al-'Ulum.

Al-'alili, Haydar Majid Hussien (2015), "Al-Shakhsiyyah al-Muhammadiyyah Fi al-Khitab al-Istishraqi al-britani Hatta Nihayat al-Qarn al-Thamin 'Ashar," *Dirasaat Istishraqiyah*, Vol. 3, No. 2), 33-71.

al-Faruqi, Isma'il Raji & al-Faruqi, Lewis Lamia (1989), *Atlas al-Hadharah al-Islamiyyah*, 'abdulwahid Lu'lu'ah (trans.), Riyadh: al-'Obaikan Library.

Al-Ghamdi, Ali Bin Mohammed Awdah (1999), A*l-Ru'yah al-Uroppiyyah Li Al-Arab wa Al-Islam fi Al-'Usur al-Wusta*, 1st Edition, Cairo: Ittihad al-Mu'arrikhin Al-Arab.

Ali, Yaser (2012), "Shariah and Citizenship—How Islamophobia Is Creating a Second-Class Citizenry in America," *California Law Review*, Vol. 100, No. 4, 1027-1068.

Al-Masiri, Abdulwahhab (1996), "Fiqh al-Tahayuz," in Abdulwahhab almasiri (ed.), *Ishkaliyat al-Tahayuz Ro'ya Ma'rifiyah Wa Da'wah Li al-Ijtihad*, 2nd Edition, Verginia: Alma'had Al-'alami Li Al-Fikr al-Islami.

Al-Misbahi, Hassunah (2017), "Muntada Asilah Yastakshif Asbab Dhohor Al-Islamophobia Fi Europa," *Al-Arab*, https://i.alarab.co.uk/pdf/2017/07/25-07/p1000.pdf.

Armstrong, Karen (1998), Sirat Al-Nabi Muhammed, Fatima Nasr & Muhammed 'Inani (trans.), Cairo: Dar Sotoor.

Aydin, Mahmut (2002), *Modern Western Christian Theological Understandings of Muslims since the Second Vatican Council*, Washington: The Council for Research in Values and Philosophy.

Betler, Alfred (1996), *Fath Al-Arab Li Misr*, Mohammed Farid Abu Hadid (trans.), Cairo: Maktabat Madbuli.

Bleich, Erik (2011), "What Is Islamophobia and How Much Is There? Theorizing and Measuring an Emerging Comparative Concept," *American Behavioral Scientist*, Vol. 55, No. 12, 1581–1600.

Bensaid, Al-Mahjub (2019), "Al-Takhwif Min al-Islam (Islamophobia)," *Al-safeer Newspaper*, accessed on 20 December 2020, http://www.essevir.info/node/9391.

Buheiry, Marwan R. (1982), "Colonial Scholarship and Muslim Revivalism in 1900," *Arab Studies Quarterly*, Vol. 4, No. 1/2, 1-16.

Chrisafis, Angelique (2015), "Interview Michel Houellebecq: 'Am I Islamophobic? Probably, yes'," *The Guardian*, Sunday, 6 September 2015, accessed on 6 July 2021, https://www.theguardian.com/books/2015/sep/06/michel-houellebecq-submission-am-i-islamophobic-probably-yes.

Cluck, Andrea Elizabeth (2012), *Islamophobia in the Post 9/11 United States: Causes, Manifestations, and Solutions*, Athens: University of Georgia.

Cucarella, Diego Sarrió (2018), "Schadler, Peter, John of Damascus and Islam: Christian Heresiology and the Intellectual Background to Earliest Christian-Muslim Relations," in *Collection: The History of Christian-Muslim Relations*, Leiden: Brill.

Esposito, John L. (2001), "The Future of Islam," *The Fletcher Forum of World Affairs*, Vol. 25, No. 2, 19-32.

Glass, Andrew (2002), "President Bush cites 'axis of evil'," *Politico*, 29 January 2019, accessed on 6 July 2021,
https://www.politico.com/story/2019/01/29/bush-axis-of-evil-2002-1127725.

Grafton, David D. (2017), "Martin Luther's sources on the Turk and Islam in the midst of the fear of Ottoman imperialism," *The Muslim World*, Vol. 107, 665-683.

Hassan, Mohammed Khalifa (2000), *Azmat al-Istishraq Al-Hadith Wa Al-Mu'asir*, Riyadh: Imam Mohammed Bin Saud Islamic University.

Hebermas, Jurgen & Ratzinger, Joseph (2006), *The Dialectics of Secularization: on Reason and Religion*, San Francisco: Ignatius Press.

Houellebecq, Michel (2017), *Istislam*, Shakir Nasruddin (trans.), Baghdad: Manshurat al-Jamal.

Huntington, Samuel, *Sidam al-Hadarat: I'adat Al-Nidham Al-'alami*, Tal'at Al-Shayab (trans.), Cairo: Dar Sotoor.

Hussein, Asif (2013), *Sira' Al-Gharb M'a Al-Islam*; Isti'radh Li al-'Ada al-taqlidi Li Al-Islam fi Al-Gharb, Mazin Motabbaqani (trans.), Riyadh: Dar Al-wai' Li al-fikr al-mu'asar.

Jenkins, John Philip (2009), *The Lost History of Christianity*, New York: Harper Collins.

Johnston, James Hoard (1999), Historical Commentary on *The Armenian History attributed to Sebeos*, R. W. Thomson (trans.), Liverpool: Liverpool University Press.

Kotter, Bonifatius (1973), "Book Review: John of Damascus on Islam. The "Heresy of the Ishmaelites" by Daniel J. Sahas," *The Thomist: A Speculative Quarterly Review*, Vol. 37, No. 4, 781-784.

Lewis, Bernard (2013), *Azamt Al-Islam*, Hazim Malik Mohsin (trans.), 1st Edition, Damascus: Safahat Li al-Nashr.

Marsho, Grigoire Mansor (1996), *Muqaddimat Al-Istitba': Al-Sharq Mawhud Bi Ghayrih La Bithatih*, 1st Edition, Verginia: Alma'had Al-'alami Li Al-Fikr al-Islami.

Matar, Jamil (2006), "Hiwar Al-Hadharat .. Al-Siyasi, Awwalan," *Al-Mustaqbal Al-'Arabi*, Vol. 28, No. 325, 56-63.

Ratzinger, Joseph (2007), *Europe: Today and Tomorrow*, San Francisco: Ignatius Press.

Said Abdulfattah 'ashor (1987), *Buhuth fi Tarikh al-Islam Wa Hadharatih*, Cairo: Dar 'alim al-Kutub.

Said, Edward (2006), *al-Istishraq: al-Mafahim al-Gharbiyah Li Al-Sharq*, Mohammed 'Inani (trans.), Cairo: Ro'ya Li al-Nashr wa Al-Tawzi'e.

Sa'di, Muhammed (2006), *Mustaqbal al-'alaqat al-Dawliyah*, 1st Edition, Bierut: Markaz Dirasat al-Wihdah Al-Arabiyah.

Schacht, Joseph & with Bosworth, C.E (1978), *Turath al-Islam*, Mohammed Zohir al-samhori, Hussien Mu'nis & Ihsan Sedqi al-'amd (trans.), Kuwait: National Council for culture, Sciences and Literature.

Schaff, Philip (1889), *The History of the Christian Church*, New York: Charles Scribner's Sons.

Schal, James (2007), *The Regensburg Lecture*, Indiana: St. Augustine Press.

The Runnymede Trust Commission on British Muslims and Islamophobia (1997), "Islamophobia: A Challenge For Us All," accessed on 8 April 2021, https://www.runnymedetrust.org/companies/17/74/Islamophobia-A-Challenge-for-Us-All.html.

Zaqzuq, Mahmud Hamdi (1997), *Al-Istishraq Wa Al-Khalfiyah Al-Fikriyah Li al-Sir'a Al-Hadhari*, Cairo: Dar Al-Ma;arif.